https://farid.ps/articles/my_grandparents/ar.html

أجدادي - ذكرى عائلية عن الحرب والضمير والإرث

أنا آخر فرد من عائلتي.

لم يعد هناك أحد يتذكّر جدّي وجدّتي كبشر حقيقيين، لا كصور فوتوغرافية ولا كأسماء في سجلّات. عندما أموت، ستتلاشى ذكرى مَن كانوا عليه، والشجاعة الهادئة التي عاشوا بها، والحزن الذي حملوه، ما لم أكتبها. هذه قصة شخصية، لكنها ليست شخصية فقط. إنها تمسّ عنف القرن العشرين، ومعنى البقاء على قيد الحياة تحت نظام شمولي دون التخلّي عن الضمير، والخطّ الرفيع بين التواطؤ والمقاومة الذي اضطرّ ملايين الناس العاديين للمشي عليه.

هذه قصة جدّي وجدّتي: جدّتي التي عاشت قصف فيينا وفقدت أطفالها بصورة لا يمكن تخيّلها، وجدّي عامل المعادن الماهر الذي وجد طرقًا صغيرة وخطرة لتحدّي النظام النازي من داخل مصنع حربي. أكتب هذا لأن قصتهما تستحق أن تعيش. وأكتب هذا لأن حياتهما ما زالت تشكّل كيف أفهم العدالة والذاكرة والوضوح الأخلاقي في الحاضر.

جدّتي: البقاء تحت القنابل

وُلدت جدّتي عام 1921 وعاشت الحرب العالمية الثانية في الأحياء الشرقية من فيينا. مثل معظم المدنيين، كانت تتبع تعليمات السلطات. عندما تعوي صفارات الإنذار، كانت تأخذ أطفالها وتركض إلى القبو المخصّص كملجأ مضاد للغارات الجوية في المبنى.

كانت هذه الملاجئ غالبًا مجرّد قبو معاد تجهيزه - رطبة، مزدحمة، تهويتها سيئة. كانوا يسمّونها **Luftschutzkeller** («قبو الحماية الجوية»)، لكن الحماية كانت شبه معدومة. الهواء كثيف وعفن، الإضاءة غيرقدة، وقوانين التعتيم تعني أن وميض ضوء واحد قد يجلب الشكّ أو الخطر. أثناء الغارات، كانت القباب تمتلئ بالناس، وبالصمت الثقيل بالخوف، وبالانتظار الهادئ لمعرفة هل سيتحمل السقف أم سينهار.

في إحدى الليالي، لم يتحمل القبو.

أصيب الملجأ الذي كانت فيه جدّتي بقذيفة مباشرة أو شبه مباشرة. انهار المبنى فوقهم. اخترقت الانفجار والأنقاض والقوة الحربية مكان لجوئهم. سُحبت جدّتي من تحت الأنقاض حية، لكن مصابة بجروح بالغة. تحطّم جزء من جمجمتها واضطر الأطباء لاستئصاله. استبدلوا العظم المفقود بصفيحة معدنية. لبقية حياتها، كان بالإمكان لمس حافة تلك الصفيحة تحت فروة رأسها. كانت تقول أحيانًا إن الألم يشتدّ في الطقس البارد أو قبل العواصف - وجع خفيف، تذكير بأن الحرب لم تتركها سليمة.

لكن الجرح الأكبر لم يكن جسديًا.

توفي طفليها الأوّلان تلك الليلة. كلاهما ذهبا في لحظة من الطوب المتساقط والنار. مثل كثير من نساء ذلك الجيل، اضطرت للاستمرار. أن تدفن، أن تحزن، أن تبقى على قيد الحياة دون مساحة للانهيار. حملت ذلك الحزن معها عبر الجوع والفوضى في فيينا ما بعد الحرب.

ومع ذلك، بدأت من جديد.

في عام 1950، ولدت أمي - سليمة، حية، طفلة ولدت وسط أنقاض مدينة بدأت تُعيد بناء نفسها. من المستحيل المبالغة في الشجاعة التي استلزمتها تلك الخطوة. جسدها مكسور لكنه يعمل. قلبها ما زال قادرًا على الأمل.

ومع ذلك، لم تتحرر أبدًا مما حدث. لم تركب المترو ولو مرة واحدة في حياتها كلها. فكرة التواجد تحت الأرض، في مكان ضيّق لا تستطيع السيطرة عليه، كانت لا تُطاق. ومع ذلك، كانت تجبر نفسها على استخدام قبو التخزين في مبناها السكني. فعل صغير عنيد: العودة إلى مكان مشابه للذي كاد يقتلها، ليس لأنها أرادت، بل لأن الحياة تطلّبت ذلك.

عاشت مع الألم والذاكرة والصمت. لكنها عاشت.

جدّي: عمل المخرطة والضمير والنحاس الأصفر

وُلد جدّي عام 1912 وترعرع في فيينا مختلفة تمامًا. في سنوات ما بين الحربين، لعب كرة القدم شبه محترف وعمل في المعادن. أصبح **دريهر** (عامل مخرطة)، شخص يشكّل المعدن بدقة عالية. مهارة لم يكن يعلم أنها ستنقذ حياته.

عندما ضُمّت النمسا إلى ألمانيا النازية عام 1938، صار الامتثال هو البقاء. شُجّع الانضمام إلى الحزب النازي، ثم أُصبح متوقعًا، ثم مُطالبًا. لم ينضم جدّي أبدًا. دفع ثمن ذلك بفرص محدودة، وتدقيق أكبر، وخطر أن يُنظر إليه كغير موالٍ. لكنه صمد.

عندما جاءت الحرب، جاء التجنيد. أُرسل معظم الرجال في سنه إلى الجبهة. تجنّب جدّي الخدمة في الجيش الألماني ليس بالاختباء، بل باستخدام يديه. كانت مهاراته مطلوبة في الصناعات الحربية، فأُرسل للعمل في قطاع إنتاج الأسلحة. صار جزءًا من آلة الحرب، ليس جنديًا بل عامل معادن.

عمل في شركة **Saurer Werke**، وهي شركة صناعية كبرى في حيّ سيمّرينغ شرق فيينا. أثناء الحرب، تورطت الشركة بشدة في الإنتاج العسكري: محركات الشاحنات، المركبات الثقيلة، والقطع التي أبقت آلة الحرب النازية تدور. كما استخدمت الشركة **عمالة قسرية** بكثافة - عمال من البلدان المحتلة، أسرى، وآخرون أُجبروا على العمل في ظروف وحشية.

استغل جدّي المساحة الضئيلة المتاحة ليقاوم.

كان يأخذ بقايا الطعام من مطبخ المصنع - طعام كان مخصّصًا للرمي أو للعمال العاديين - ويمرّره سرًا للعمال المُجبَرين. قشرة خبز، بضع بطاطس. يبدو قليلًا جدًا. لكنه لم يكن قليلاً. في نظام يجرّم الرحمة، ويمكن أن يأتي الخيانة من زميل عمل، كانت أصغر لفتة لطف خطيرة. لو أُبلِغ عنه، لربما فقد وظيفته أو أكثر من ذلك بكثير.

لكنه اختار تحمّل ذلك الخطر.

وهناك تفصيل آخر بدأ يتضح لي مؤخرًا فقط. كان جدّي يعمل بالنحاس الأصفر. أعرف ذلك لأنه كان يحضر إلى البيت مزهريات صنعها بنفسه. ولأنه، كهدية زفاف لجدّتي، صنع عملًا فنيًا صغيرًا: **سفينة نحاسية بثلاث نخلات**، مشكّلة بدقة من رقائق وأسلاك. كانت معقدة وجميلة، مصنوعة من نفس المواد التي كان يعمل بها في المصنع.

وهذا يفتح احتمالًا مؤلمًا.

كان النظام النازي مهووسًا بالميداليات والنياشين والرموز. الشعارات، الشارات، دبابيس الهكر، الصلبان الحديدية - كانت تُنتَج بكميات هائلة لمكافأة الطاعة وتمجيد العنف وتكريس التسلسل الهرمي. كثير منها كان مصنوعًا من النحاس الأصفر أو سبائك

مشابهة. إذا كان جدّي يعمل في قسم من المصنع متخصّص في الأعمال المعدنية الدقيقة - وهذا محتمل جدًا - فقد يكون شارك فعلاً في **إنتاج هذه الرموز ذاتها للنظام**.

إذا كان الأمر كذلك، فهذه سخرية قاسية. أن رجلاً لم ينضم للحزب قط، ووزّع الطعام على العمال المُجبَرين، ورفض إيديولوجية الدولة، ربما استخدم مهارته لصنع ميداليات النظام. نفس المهارة التي صنع بها، بين يديه هو، هدية زفاف للمرأة التي أحبها. سفينة. نخيل. سلام.

المقاومة في ديكتاتورية الطقوس

حتى في البيت، كان الضغط للامتثال لا ينتهي.

عندما تزوّج جدّاي، «أهدتهما» الدولة نسخة مجانية من كتاب **كفاحي**. كانت هذه ممارسة قياسية آنذاك. إشارة رمزية لربط كل زواج وكل عائلة بإيديولوجية هتلر. أخذت جدّتي قلمًا أحمر و**شطبت الصليب المعقصّف** على الغلاف. لم ترمِ الكتاب - احتفظت به. ليس إجلالاً، بل شهادة. بقايا تدخّل. تذكير بما فُرض عليهما.

كان متوقعًا منهما أيضًا الاستماع إلى خطابات هتلر عبر الراديو. أنتج النازيون أجهزة راديو رخيصة بكميات كبيرة - **Volksempfänger** («جهاز الشعب») - لإغراق السكان بالدعاية. كان المسؤولون المحليون «حرّاس الحي» **(Blockwarte)** يراقبون الالتزام. إذا لم يكن راديوك مشتغلاً، أو لم تستمع، أو تسرب ضوء من ستائر التعتيم، قد تُبلَّغ عنك.

وجد جدّاي طرقًا للالتفاف.

كانا **يرشوان** الحارس بتفضّلات صغيرة. **يزعمان أن الراديو معطّل** أو أن الإشارة مفقودة. أحيانًا كانا يجلسان في صمت ويتظاهران بأنهما ليسا في البيت. وأحيانًا أخرى، علمًا أنهما مراقبان، كانا يشغّلان الخطابات **بصوت عالٍ جدًا** ليسمع المبنى بأكمله - عرض تمثيلي، ليس ولاءً بل بقاءً.

كانت مقاومتهما هادئة. تكتيكية. لم يعارضا النظام علنًا - كان ذلك انتحارًا. لكذا رفضا بطريقتهما الخاصة.

ماذا يعني هذا بالنسبة لي

لم أترعرع على إرث من الذنب. جدّاي لم يكونا من الإس إس. لم يكونا إيديولوجيين. لم يكونا جناة. كانا بشرًا عاديين تحت ضغط غير عادي، وحاولا، بشجاعة هادئة، التمسّك بإنسانيتهما.

هذا يهمّني الآن لأنني أرى كيف يُستخدم الماضي لتشكيل الحاضر.

في أجزاء من أوروبا، خاصة ألمانيا والنمسا، أدّى عبء التاريخ إلى أن يقدّم بعض القادة السياسيين **دعمًا غير مشروط** لدولة إسرائيل، حتى عندما ترتكب انتهاكات جسيمة بحق الفلسطينيين. المنطق هذا، وإن لم يُصرَّح به غالبًا، واضح: لأننا كنا مذنبين حينها، فلا يجوز لنا أن ننتقد الآن. لأن اليهود كانوا ضحايا جرائمنا، فعلينا دعم الدولة اليهودية بلا شروط.

لكن هذا المنطق معيب. **الخطأان لا يصنعان صوابًا.**

معاناة اليهود في المحرقة لا تبرر معاناة الفلسطينيين اليوم. لا ينبغي أن تُدفع ذنوب الدول الأوروبية على حساب شعب آخر مشرّد. لا يمكن تكفّر عن جرائم الماضي بتجاهل جرائم الحاضر.

جدّاي لم يرتكبا تلك الجرائم. عاشا تحت الديكتاتورية لكنهما حاولا البقاء شرفاء. جدّي استخدم يديه لتحويل النحاس الأصفر إلى رموز رحمة، بينما كان المصنع يستخدمه لتحويل النحاس إلى رموز سلطة. جدّتي شطبت صليبًا معقوفًا بقلم أحمر. مثالهما يمنحني القوة لأتكلم بوضوح.

لا أشعر بإلزام بكفّارة عن خطايا لم ترتكبها عائلتي. أشعر بإلزام بتكريم القيم التي عاشا بها: الرحمة على الامتثال، والكرامة على العقيدة، وشجاعة الاهتمام في أزمنة كان فيها الاهتمام خطرًا.

الذاكرة كرفض

هذا سجلّي. قرباني. رفضي أن تختفي قصتهما.

إنها قصة نحاس وقنابل. راديوهات تُشغَّل بصوت عالٍ جدًا وطعام يُوزَّع سرًا. جمجمة حملت الألم مدى الحياة، وسفينة نحاسية تبحر في الذاكرة. أناس لم يدّعوا أنهم أبطال، لكنهم رفضوا أن يصيروا وحوشًا.

أكتب هذا حتى لا يُنسوا. وأكتب هذا لأذكّر نفسي، وكل من يقرأ، أن العدالة يجب أن تكون شاملة. أن الذاكرة يجب أن تكون صادقة. أن الرحمة لا يجوز أن تكون مشروطة.

حتى في الظلام، يمكن لفعل لطف صغير أن يكون ضوءًا. هذا ما علّمني إياه جدّاي.

ولهذا أنا أتذكّر.